لماذا يقول المؤمنون

(اهدنا الصراط المستقيم)

مع أنهم مهتدون ؟

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(حول تفسير سورة الفاتحة)
من الصفحة ١٥٩ حتى الصفحة ١٨٠

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناء على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم مؤلفات الإمام
ـ المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

وأما الجواب عن المسألة الثانية: وهي سؤال المؤمن الهداية فيقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ مع أنه من المهتدين:

فقد اختلف علماء السلف الصالح رضي الله عنهم في الجواب:

فقال كثير منهم: إنّ هذا السؤال محمول على الثبات والدوام على الهداية، فإنّ العبد مفتقر إلى ربّه في كل لمحة في تثبيته على هداية الإيمان، والاستمرار والثبات عليها، وهو أحوج ما يكون إلى ذلك، ومن ثَمَّ أمر الله تعالى العبد المؤمن في صلواته أن يسأل الله تعالى ذلك فيقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وهنا جاء الجواب من الحق سبحانه: «ولعبدي ما سأل».

اللهم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين ـ فاستجب لنا يا مولانا، لأنك وعدتنا بقولك: «ولعبدي ما سأل» وأنت لا تخلف الميعاد.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

وكان سيدنا الصدّيق الأكبر رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة في صلاة المغرب بعد الفاتحة سرّاً ـ وقد اعتبر بعض الفقهاء ذلك من باب القنوت.

ومن العبر: أنه اجتمع رجلان: مسلم وكافر، فاستحسن الكافر الإسلام وأحبّه، فقال: أشهد أنْ لا إلّه إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما المسلم فإنّه استحسن الكفر وأحبّه، وصرّح بكفره، ثم ماتا قبل افتراقهما، فهذا الذي كان كافراً فأسلم صار إلى الجنة، وذاك الذي كان مسلماً فكفر صار إلى النار، وكان ذلك كله في ساعة واحدة، هذا نزل إلى أسفل سافلين، وهذا ارتفع إلى عليين.

فاعتبروا يا أولي الأبصار، ولا تغتروا في هذه الدار، وطول الأعمار.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ ـ فافهم وتبصّر، ففي لحظة واحدة قد ترتفع، وقد تنخفض، والله تعالى هو الخافض الرافع، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى: «يخفض القسط ويرفعه».

وقد ذهب كثير من علماء السلف الصالح إلى أنّ سؤال الهداية في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ محمول على سؤال زيادة الهداية.

قالوا: وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

ويدخل القول الأول في سؤال الزيادة، فإن سؤال زيادة الهداية يستلزم تثبيت الأصل والزيادة عليه، فقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: زدنا هدىً فوق الهدى الذي تفضلت به علينا.

قال تعالى ـ في أصحاب الكهف ـ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه: «قل: اللهم اهدني وسدّدني؛ واذكر في الهداية هدايتك الطريق، وفي التسديد تسديدك السهم»[1].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم لسيدنا الحسن عليه السلام: «قل: اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يُقضى عليك، وإنه لا يذلّ من واليت، ولا يعزّ من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما قضيت، أستغفرك اللهم وأتوب إليك»[2].

ولما كان الصراط المستقيم هو الإسلام ـ أي: دين الإسلام ـ كما ذكره صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتقدم، **والإسلام إذا أُفرد ذِكره** في آية أو حديث فإنّه يعم الاستسلام الاعتقادي، والاستسلام العملي، والاستسلام القولي، لأنه بمعنى الدين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ **وإذا اقترن بذكر الإيمان** كما في حديث جبريل عليه السلام فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، والأقوال الظاهرة، وبالإيمان العقائد الإيمانية القلبية.

فالإسلام هو الصراط المستقيم كما جاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، الذي تقدم ص/١٢٩/، فهو يشمل قضايا الإيمان الاعتقادية، وأمور الإسلام العملية كلها.

---

(١) أخرجه مسلم، وأبو داود والنسائي.

(٢) رواه الحاكم في (المستدرك).

وإذا أُطلق الإيمان وأُفرد بالذكر فإنّه يشمل التصديق القلبي. وهو العقائد الإيمانية، والتصديق العملي، والتصديق القولي، فيكون مفهوم الإسلام والإيمان عند إطلاقهما وإفرادهما بالذكر ـ مفهومهما سواء، ويدل على ذلك آية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

فالإيمان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ يشمل الإيمان الاعتقادي القلبي، والإيمان العملي: كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك من تكاليف الشريعة، ويشمل الإيمان القولي، ويشمل العقائد القلبية، والأعمال الظاهرة والأقوال.

والدليل على ذلك أنّه سبحانه قابل هذا الإيمان بأمور ثلاثة: فقال: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

فالمراد بالكفر الكفر الاعتقادي، وهو إنكار ما يجب الاعتقاد به.

والمراد بالفسوق هنا الفسوق القولي كما جاء في الحديث[1]: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

وأما العصيان فهو ترك الأوامر، والوقوع في المناهي؛ وهي أمور عملية.

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق؛ والحياء شعبة من الإيمان».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، والإمام أحمد في (مسنده).

فأطلق الإيمان على أمور الدين الإسلامي كلّها: الاعتقادية والعملية والقولية.

فالإسلام والإيمان مدلولها واحد عند إفرادهما بالذكر كما بينت ذلك فيما سبق.

وقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بأنه الإسلام، كما تقدم في الحديث أنّ الله تعالى ضَرب مثلاً صراطاً مستقيماً، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فالصراط هو الإسلام» أي: دين الإسلام.

ولما كان الصراط المستقيم هو الإسلام كما دلَّ عليه الحديث السابق، فهو يشمل قضايا الإيمان: الاعتقادية والعملية والقولية.

والإيمان له شعب متعددة، والعبد المؤمن مأمور أن يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن كان ممن لم تكمل له شعب الإيمان فهو يسأل هداية التوفيق لتمامها، وإنْ كان ممن تمّتْ له تلك الشعب فهو يطلب زيادة الهداية لكمالها، وإن حصل على كمالها فهو يطلب زيادة الهداية لكمال كمالها، والترقي في درجاتها، وإنْ كان ممن حصل له ذلك؛ فهو يطلب الترقي في مراتبها الإحسانية والرضوانية، وزيادةً في رفعة درجات الحبّ والقرب، والمعارف الإلٰهية، وأمور لا حدّ لها ولا انتهاء، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ مع أنّ هذا الخطاب للمؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فهذه هداية المحسنين وهم المقربون ، فزادهم هدياً إلى هدى ، وقرباً بعد قرب.

فالهداية الخاصة على مراتب ، وليس لمراتبها حد.

وهناك هدي النبوة ، وهو أكمل وأفضل من ذلك كله ، وأسمى وأعلى ، وذاك الهدي خصّ الله تعالى به الأنبياء على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام ـ لا يناله غيرهم.

قال تعالى ـ لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقال تعالى ـ مُخبراً عن خليله على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وقال تعالى ـ مُخبراً عن كليمه على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۖ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

ثم قال سبحانه ـ بعد ذلك ـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾.

فجمع جميع أنواع الهدي النبوي للخليفة الأعظم الجامع، والإمام الشافع صلى الله عليه وآله وسلم الجامع والفاتح، والخاتم للنبوات والرسالات الإلهية؛ سيدنا وحبيبنا وروح أرواحنا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلينا معهم أجمعين، وزاده الله تعالى هدياً فوق هديهم، وهو الهدي المحمدي الخاص، ولم يزل ولا يزال يترقىٰ مراتب الهداية الخاصّة به.

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم كما جاء في حديث التوجه في الصلاة: «اللهم اهدني لأحسن الأعمال، وأحسن الأخلاق؛ لا يهدي لأحسنها إلا أنت» الحديث.

مع أنّه قد ارتقى أعلى مقامات حسن الأخلاق، وعلا ذروتها، بنص قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وأزلف أعلى مراتب حسن الأعمال وأفضلها وأكملها بنص قوله ﷺ: «إنّي لأتقاكم لله وأعلمكم به».

وفي رواية «إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اهدني، ويسّر لي الهدى».

فالهداية على مراتب ولا حدّ لها ولا انتهاء.

قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ ﴾ أي: هدىً فوق هدى، وهكذا دواليك، كل مهتد على حسب مقامه ورتبته، فيزيدهم سبحانه هدىً.

فدخل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾ جميع أصناف المهتدين، على اختلاف مراتبهم ـ فافهم ذلك، واعلم أنّ كل ذلك من باب الفضل والمنة، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اللهم رب آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها فإنك قلت: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وهو فضله يضعه حيث يشاء، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

وقد أمر عباده أن يسألوه من فضله قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وما أحسن هذه الأبيات التي أنشدها شارح (منازل السائرين) العلامة العارف سعد الدين أبو محمد عبد المعطي ابن أبي الثناء محمود بن عبد المعطي اللخمي الإسكندري حيث قال في آخر شرحه بعد الكلام على المقامات؛ فالله يبلغنا هذه الأحوال، ولا يجعل حظنا منها المقال:

ما وحَّد الواحدَ من واحد
حقاً فغاب الخلق عن ذكره
إلاَّ بفضلٍ من لدن واهبٍ
يَعجز كلُّ الخلق عن شكره
فكن فقيراً وقتَ إفضاله
تَنل جميل الخير من بِرِّه
ولا ترى نفسك فيما ترى
يحجُبك المنعم عن سِرِّه اهـ

أي: فكن في حالٍ وأنت لا ترى ذلك من جدّ نفسك، أو تحصيلها بكسبك، بل هي من فضل ربك سبحانه، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

اللهم ربّ آتِ نفسي تقواها وزكِّها أنت خير مَنْ زكَّاها، أنت وليُّها ومَولاها ـ آمين.

فالصراط المستقيم هو دين الإسلام كما تبين في الحديث المتقدم: «إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً...» الحديث، والدين يشتمل على الأوامر وعلى المناهي، فالسير على الصراط المستقيم يطالَب الماشي عليه بأوامر يجب عليه أن يقوم بها، ويطبقها، فإن معالمها منصوبة على متن الصراط المستقيم، وأن يجتنب المحرمات والمنهيات، فلذلك بيَّن في الحديث أنّ على جنبي الصراط المستقيم المحارم والمخالفات، فمن انحرف عن الصراط المستقيم فقد وقع في تلك المحرمات التي هي على جانبي الصراط، وأمّا المأمورات الشرعية فهي على متن الصراط، فالسالك على الصراط المستقيم يمر على مواقف ومعالم كمعالم الطريق، تطالبه بأعمال وأوامر إلّهية، وأقوال شرعية، وأخلاق حسنة، وآداب عالية؛ متبعاً بذلك كله إمام الهداة والمهتدين، وسيد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين وعلينا معهم ـ آمين.

وتلك الأوامر لها أعلام وإشارات على متن الصراط، كما جاء

في الحديث[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن للإسلام صُوى ومناراً كمنار الطريق» والصوى هي: الأعلام المنصوبة على الطريق ، جمع صُوَّة كقوَّة ، تُوَجِّهُ الماشي للسير والعمل بمقتضاها.

فالسالك على الصراط هو مأمور بتطبيقها حتى يمشي سوياً على صراط مستقيم ، ويمرَّ على عقبات ـ أي: مصاعب يجب عليه أن يقتحمها ، ويتابع السير على الصراط مستعيناً بالله تعالى ، فلا بد: له من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وبذلك تسهل عليه تلك المصاعب ، ويمشي بيسر كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنه ليسيرٌ على مَنْ يسّره الله عليه».

فالصراط هو الدين ، وهو يشتمل على أمور اعتقادية إيمانية ، وأمور عملية ، وأمور قولية ، وأحوال قلبية إحسانية؛ كما فسّره حديث النواس ، وكما جاء في حديث جبريل عليه السلام فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وأجابه صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أتاكم جبريل يعلمكم دينكم».

فذلك كله من الدين ، وهذه الأوامر كلها يقال لها: شعب الإيمان.

وفي الحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة».

---

(١) رواه الحاكم كما في (الجامع الصغير) ورمز إلى صحته ، وجاء في رواية الطبراني ، عن أبي الدرداء مرفوعاً: «إنَّ للإسلام صُوى وعلامات كمنار الطريق، ورأسه وجماعه ـ مجمعه ـ: شهادة أن لا إلَه إلا الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإتمام الوضوء».

روى الإمام مسلم ، وأصحاب السنن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إلّه إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان».

وجاء في رواية البخاري: «بضع وستون شعبة» ، ولكن أكثر روايات هذا الحديث عند غير البخاري: «بضع وسبعون».

وقد اتفق علماء الحديث ، الذين بحثوا في بيان تلك الشعب ، فاتفقوا على أكثرها ، واختلفوا في تعيين بعضها اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ ، فإنّ كل ما ذكروه مما اختلفوا في حدّه وتبيينه ، كل ذلك هو من فروع شجرة الإيمان ، ومن شعبها ، والبحث في بيان تلك الشعب ، ونقُول أقوال العلماء فيها مفصلاً يحتاج إلى كتاب مستقل ـ وقد صنف العلماء في ذلك كتباً ـ ولكن أذْكُرها الآن بهذه المناسبة مجملة دون شرح وتفصيل ، على الوجه الذي ذكره العلامة الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى ونفعنا به وبجميع العلماء العاملين ، فقد ذكر في شرحه: (تحفة الباري) عند شرحه للحديث ما حاصله:

إنّ الشعب جمع: شُعبة ، هي في الأصل ـ في وضع اللغة ـ غُصن الشجرة ، فشبه الإيمان بشجرة ذات أغصان وشعب كثيرة.

قلت: وهذا الحديث بيان لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

فالكلمة الطيبة هي لا إلّه إلا الله ، ثابتة في أرض قلب المؤمن ،

ومتمكنة فيه ، ولها شعب كثيرة متفرعة عنها ، فهي كمثل شجرة طيبة وهي النخلة ـ كما جاء ذلك في الصحيح ـ فإن أصلها ثابت في الأرض وراسخ فيها ، وفرعها يعلو في السماء ، وهي تؤتي أُكلها وثمراتها كل حين، وفي كل الأوقات لا ينقطع خيرها ما بين رُطب، وتمر ناضج ، وتمر يابس ، وعجوة: وأنواعها متعددة ، وهكذا ثمرات الإيمان العملية والقولية والأدبية والخُلقية المرضية ، فإنّها تعلو في السماء ترفعها الملائكة ، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الآية ، كما فصلت ذلك في كتاب (الصعود) ، فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» فيه بيان الآية الكريمة، وأنّ الإيمان له شعب كبيرة، وهي شعب كثيرة ، كما شبه صلى الله عليه وآله وسلم الإسلام ببيت ذي عمد في حديث: «بني الإسلام على خمس» ، والمراد بالإيمان في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان بضع وسبعون شعبة» الإيمان الكامل ، والإيمان الكامل هو : تصديق بالْجَنان ـ أي: القلب ـ وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ـ أي: الجوارح ـ.

قال رحمه الله تعالى: فهذا الإيمان الكامل يشتمل على شعب ، ترجع إلى ثلاثة أنواع: **قلبية** ، **وقولية** ، **وعملية**.

فالأول: وهي الاعتقادية الراجعة إلى أعمال القلوب ، تتشعب إلى ثلاثين شعبة:

١ ـ الإيمان بالله تعالى أي: بوجوب وجوده ، ووحدانيته في ذاته وصفاته ، واعتقاد حدوث ما سواه.

قال عبد الله: والإيمان الاعتقادي بجميع شُعبه لا يصح حتى يكون تصديقاً جازماً ، بحيث لا يدخله شكّ ولا ارتياب ، قال

الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٢ ـ والإيمان بالملائكة عليهم السلام.

٣ ـ والإيمان بكتبه.

٤ ـ والإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام.

٥ ـ والإيمان بالقدر خيره وشره.

٦ ـ والإيمان باليوم الآخر.

٧ ـ والإيمان بوعده الجنة والخلود فيها.

٨ ـ والإيمان بوعيده النار وعذابها.

٩ ـ محبة الله تعالى.

١٠ ـ محبة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

١١ ـ والحب في الله تعالى لكل من يحبه الله، وما يحبه الله تعالى.

١٢ ـ والبغض في الله تعالى لكل من يبغضه الله، وما يبغضه الله تعالى.

١٣ ـ والإخلاص لله تعالى.

١٤ ـ والتوبة إلى الله تعالى.

١٥ ـ والخوف من الله تعالى، ورجاء رحمة الله وفضله.

١٦ ـ وترك اليأس.

١٧ ـ وترك القنوط.

١٨ ـ والشكر.

١٩ ـ والوفاء بالعهد.

٢٠ ـ والصبر.

٢١ ـ والتواضع للمؤمنين.

٢٢ ـ والرحمة لخلق الله تعالى.

٢٣ ـ والرضا بالقضاء.

٢٤ ـ والتوكل على الله تعالى.

٢٥ ـ وترك العُجْب.

٢٦ ـ وترك الحسد.

٢٧ ـ وترك الحقد.

٢٨ ـ وترك الغضب.

٢٩ ـ وترك الغش.

٣٠ ـ وترك حب الدنيا.

والنوع الثاني وهو ما يتعلق بالأقوال: وهو يتشعب إلى سبع شعب:

١ ـ التلفظ بكلمة التوحيد أي: الشهادة: لا إلَه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ تلاوة القرآن الكريم.

٣ ـ تعلم العلم.

٤ ـ تعليم العلم.

٥ ـ الدعاء.

٦ ـ ذكر الله تعالى بالأذكار الواردة.

٧ ـ اجتناب اللغو.

النوع الثالث: وهو ما يرجع إلى الأعمال البدنية: وهو يتشعب إلى أربعين شعبة، وهي على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: ما يختص بالأعيان ـ أي: يتعلق بذات الإنسان المكلف، وهو ست عشرة شعبة:

١ ـ التطهر.

٢ ـ ستر العورة.

٣ ـ إقامة الصلاة.

٤ ـ إيتاء الزكاة.

٥ ـ الصوم.
٦ ـ الحج.
٧ ـ الوفاء بالنذر.
٨ ـ الاعتكاف.
٩ ـ ذبح الضحايا.
١٠ ـ الجود.
١١ ـ فكّ الرقاب.
١٢ ـ الصدق في المعاملات.
١٣ ـ الشهادة بالحق.
١٤ ـ الفرار بالدِّين من الفتن.

الصنف الثاني: ما يتعلق بعباد الله تعالى الذين لهم به صلة، وهي ست شعب:

١ ـ بر الوالدين.
٢ ـ التعفف بالنكاح.
٣ ـ القيام بحقوق العيال.
٤ ـ تربية الأولاد.
٥ ـ صلة الرحم.
٦ ـ طاعة أولي الأمر.

الصنف الثالث: الحقوق التي تتعلق بعامة العباد، على حسب اختلاف مقتضيات حقوقهم، وهي ثماني عشرة شعبة:

١ ـ الحياء بأنواعه.
٢ ـ الإصلاح بين الناس.
٣ ـ المعاونة على البر والتقوى.
٤ ـ الأمر بالمعروف.
٥ ـ النهي عن المنكر.
٦ ـ الجهاد في سبيل الله تعالى.
٧ ـ إقامة الحدود.
٨ ـ أداء الأمانة.
٩ ـ إكرام الجار.
١٠ ـ حسن المعاملة في الأمور المالية وغيرها.

١١ ـ حسن الْخُلق مع جميع الْخَلق.
١٢ ـ إنفاق المال على الوجه الذي شرعه الله تعالى.
١٣ ـ البدء بالسلام.
١٤ ـ ردّ السلام.
١٥ ـ تشميت العاطس.
١٦ ـ كفّ الضرر عن الناس.
١٧ ـ اجتناب اللهو واللعب.
١٨ ـ إماطة الأذى عن الطريق.

قال الشيخ زكريا رحمه الله تعالى ـ بعدما عدّ تلك الشعب ـ: فهذه سبع وسبعون شعبة. ا هـ.

قال عبد الله: وتفسير البضع في هذا الحديث بالسبع قد جرى عليه المحققون من العلماء العارفين، ومَن تأمل شُعَبَ الإيمان علم أنّه ـ الإيمان ـ قد جمع كل خير وبرّ، وسعادة وصلاح ونجاح في الدنيا والآخرة، فإنّ هذه الشعب منها شُعَبٌ اعتقادية، منها عملية، ومنها قولية، ومنها خُلُقية، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والحياء شعبة من الإيمان»، فالحياء، والخلق الحسن، والمعاملة الحسنة، والمعاشرة الحسنة كل ذلك من الإيمان، وله اعتباره في الميزان، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حسن، وإنّ الله تعالى ليُبغض الفاحش البذيء» ـ أي: سيء الْخُلق ـ رواه أبو داود والترمذي.

وفي رواية الترمذي: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّ صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة» أي: يبلغ درجة صائم النهار وقائم الليل.

كما في رواية الحاكم والطبراني: «إنّ المؤمن لَيُدْرك بحسن خلقه درجات قائم الليل وصائم النهار».

فضعيف العبادة حَسن الخلق أفضل عند الله تعالى من كثير العبادة لكنه سيء الْخُلق، بذيء اللسان.

فقد روى الطبراني بسند رواته ثقات، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل؛ وإنّه لضعيف العبادة، وإنّه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم».

وإذا كان المؤمن كثير العبادة حسن الخلق فنعمّا هو.

فَحُسْن الخُلق، والمعاشرة، والمجاورة، والمعاملة، والمجالسة، والمقابلة كل ذلك من الإيمان.

كما أن شعب الإيمان تشتمل على جميع الحقوق الأدبية: الفردية والاجتماعية، وحقوق الوالدين والأولاد، والزوجة، والأقارب والأرحام، وحقوق الطريق: من السلام وردّه، وهداية الضال، ونظافة الطريق؛ فإن من شعب الإيمان النظافة بأنواعها: نظافة البدن والثياب، والبيت وغير ذلك.

روى الترمذي وحسّنه، عن سعد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ الله تعالى طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ـ ساحات دوركم ـ ولا تشبّهوا باليهود».

فمن تمت له هذه الشعب، ووفقه الله تعالى إلى تطبيقها، والتحقق بها، فهو المؤمن الكامل الإيمان، وهو لا يزال مأموراً أن يقول:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ليحصل له ذلك على وجه الكمال بعد التمام ، فإذا كمل له ذلك فهو يسأل الهداية أيضاً إلى كمال الكمال فيها ، فإذا حصل له كمال الكمال بلغ درجة الصالحين الكُمّل ، المذكورين في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

فإذا بلغ كمال درجة الصالحين الكمّل ، فهو يسأل الهداية ليرتقي إلى مقام الشهداء ، وهو على مراتب ، ومن مراتب مقام الشهادة القتل في سبيل الله تعالى ؛ لإعلاء كلمة الله تعالى ، وفوق مقام الشهادة مقام الصديقية ، وهي على مراتب ودرجات ، فليس جميع الصديقين في مقام سيدنا الصديق الأكبر رضي الله عنه ، فهو الوفي الفاني في حبه وودّه للسيد المختار الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي صاحبه في الغار ولم يفارقه: لا في هذه الدار ولا في تلك الدار.

فالعبد مأمور أن يسأل الهداية ، ويقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فكلما ارتقى رتبة في هداية التوفيق تطلّع إلى ما هو أعلى منها، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فالمحسنون هم المقربون ، فإنهم جاهدوا في الله: جاهدوا أولاً أنفسهم الأمارة حتى أوقفوها عند حدود الله تعالى ، وعما حرم الله تعالى ، وجاهدوها حتى حملوها على امتثال أوامر الله تعالى ، وجاهدوها حتى سلكوا بها طُرُق القرب إلى الله تعالى من النوافل والعبادات ، والصيام والقيام ، وصفاء السريرة ، وسلامة الصدر ، وإبعاد النفس عن الحسد والحقد ، وعن حمل الغلّ على المؤمنين

ـ وإلى ما هناك من أمراض القلوب وعلل النفوس وآفاتها.

ومن المعلوم أن جهاد النفس هو جهاد شاق أكبر وأصعب من جهاد العدوِّ الخارجي:

روى الترمذي، وابن حبان، عن فَضالة بن عبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في الله...».

فإن للنفس أعواناً ودواعي سوء الهوى الفاسد، والشيطان المارد، وزخارف الدنيا الشاغلة عن الآخرة.

ويرحم الله القائل:

إني ابتليت بأربع يرمينني
بالسهم عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسي والهوى
يا ربِّ أنت على الخلاص قدير

كما أنّهم **جاهدوا** في الله تعالى أعداء الله تعالى، وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم **بالحجة والبرهان، أو بالسيف والسِّنان**.

فالأول: كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ ـ أي: بالقرآن الكريم وحججه ـ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، فسمى سبحانه هذا النوع جهاداً كبيراً.

والثاني: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد جاءت آيات وأحاديث كثيرة في فضل القتال في سبيل الله تعالى، وفي فضل القَتْل في سبيل الله تعالى ـ كما هو مفصل في موضعه.

فجميع أنواع الجهاد هي داخلة في عموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾.

فكان جزاؤهم أنْ هداهم سبحانه سبله الخاصة: سبيل المعرفة بالله تعالى؛ المعرفة الخاصة، وسبيل المحبة الإلهية الخاصة، فهو سبحانه يُحبهم وهم أشد حباً لله، وسبيل القرب من حضرة الرب؛ القرب الخاص، وسبيل الوصول إلى مقام الأنس في حظيرة القدس، فهم أولياء الحق ﴿ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾.

اللهم بجاههم عندك تَفَضّل علينا بما تفضلت عليهم على وجه الفضل والمِنَّة، بلا اختبار ولا محنة ـ آمين يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب.

والسير على الصراط المستقيم يتطلب أمرين:

الأول: الاستمرار في السير عليه، والثبات، والقيام بما يتطلبه من حقوق وواجبات، على الوجه الذي جاء به الداعي إلى الصراط المستقيم، والهادي إليه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾.

فالسير إلى الله تعالى يجب أن يكون على هذا الصراط، الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهدي إليه، فمن سار عليه وصل بسلام.

الثاني: الإخلاص وصدق التوجه إلى من سَلَكْتَ الطريق الموصل إليه؛ وهو الله تعالى ربّ العالمين؛ فإن سيرك على الصراط المستقيم

يوصلك إلى المقصود وهو ربك ، كما في الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ فاتباع الهادي إلى الصراط المستقيم وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو الإمام الأعظم؛ به تصل إلى الله تعالى.

وإلى هذين الأمرين العظيمين نبه الله تعالى عباده فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، فتدبر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ فإنّها تدل من باب التضمين على معنيين: الثبات والاستمرار، وصدق التوجه إلى من هو المقصود، وذلك بالإخلاص، وعدم الرياء وحب الظهور والسمعة؛ وما هنالك من رعونات النفس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: فليُخلص ويباعد نفسه من الرياء، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما، والبيهقي من طريقه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل: يا رسول الله إنّي أقف الموقف ـ أي: في العبادة ـ أريد وجه الله، وأريد أن يُرى موطني ـ أي: يراني الناس ـ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية، كما في (ترهيب) المنذري.

وروى الإمام أحمد، وابن ماجه وغيرهما، عن ثوبان رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أنّ خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن».

والمعنى: ابذلوا جهدكم في الحصول على كمال الاستقامة، فإنّها تشمل استقامة القلوب، واستقامة اللسان، واستقامة الأعمال، واستعينوا بالله تعالى على ذلك كله.

قال العلامة المناوي: وكأن القصد به: تنبيه المكلف على رؤية التقصير، وتحريضه على الجد لئلا يتكل على عمله. اهـ.

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه».

ولذلك جاء في (سنن) الترمذي وغيره، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا أصبح ابن آدم فإنّ الأعضاء كلها تُذكِّر اللسان، تقول له: اتق الله تعالى فينا، فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا».

وروى مسلم وغيره، عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: آمنت بالله، ثم استقم».

وفي رواية الترمذي زيادة: فقلت: يا رسول الله فما أخوف ما تخافه عليّ؟ فأخذ بلسانه وقال: «كفّ عليك هذا»[1].

---

(١) أي: احفظ لسانك من اللغو، ومن كل ما لا يرضاه الله تعالى: كالغيبة ونحوها حتى تنجو من المهالك.